السببية الإجرامية من المنظور النسقي: دراسة تحليلية

أ.أمال عيد

أ. بقسم علم النفس.

جامعة البليدة.

الملخص:

تمثل الجريمة منذ القدم ظاهرة خطيرة بالنسبة للأفراد والمجتمعات، لذلك اجتهد الباحثون في محاولة منهم لفهم العمليات والميكانيزمات المختلفة التي تفرز السلوك الإجرامي والانحرافي وذلك على امتداد حقبات تاريخية بدءا بما قدمه **لومبروز** في نظريته البيولوجية **ودوركايم** في تفسيره للسلوك الانتحاري و**اليس** في تنظيره للسّلوك الادماني وغيرهم من المختصين في ميادين مختلفة؛ وهو الأمر الذي يؤكد لنا أن دراسة الجريمة والانحراف هو ميدان يشمل العديد من التخصصات وأن الجريمة كفعل اجتماعي يحتاج إلى منظرين من علم الاجتماع وعلم النفس والطب العقلي وغيرهم...

وقد جاءت هذه الدراسة لتعطي نظرة تفسيرية للجريمة والانحراف على ضوء نظرية الأنساق وما قدمته هذه النظرية من تحليلات حديثة معتبرة أن الفرد والجماعة والمجتمع يمثلون مجموعة من الأنساق تتفاعل فيما بينها وفق سيرورات قد تكون سّوية وقد تكون منحرفة، وهو ما سنظهره من خلال هذه المساهمة.

كلمات مفتاح: المنظور النسقي، الفرد، المجتمع، الانحراف، الجريمة.

Résumé :

Le crime représentait depuis l'aube de l'humanité un phénomène dangereux, c'est la raison pour laquelle les chercheurs ont essayé de comprendre les divers mécanismes engendrant le comportement criminel et déviant (Lombroso, Durkheim, Ellis etc.); d'où l'étude de la criminalité-en tant que fait social -est aujourd'hui une science pluridisciplinaire (psychologie,sociologie,psychiatrie..).

Par cette contribution,l'auteure tente de présenter un point de vue expliquant les causes du crime et la déviance à la lumière de «la théorie des systèmes» qui considère l'individu,le groupe et la société un ensemble de systèmes en interaction,motivé par des processus normaux ou déviants.

Mots clefs : théorie des systèmes, société, déviance, crime.

PDF Editor

تعتبر الأسرة من بين أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية الأولى التي ينتمي إليها الفرد ويتشرب منها باقي سلوكاته واتجاهاته، هذه الأسر بدورها تتكون من أفراد، وأننا بالتالي لا نستطيع فهم سلوك كل منها على حدة ولو درسنا سلوك كل فرد من أفراد الأسرة لما قلنا أننا درسنا سلوك الأسرة سواء كان هذا السلوك شاذا أو سّويا.

ومن هنا يمكن أن نعتمد على فكرة أن الكل لا يمكن فهمه إلا من خلال دراسة مجموع أجزائه في علاقتها ببعضها البعض وفي علاقتها بالعملية الكلية للأداء فهذه العملية لا يمكن التعبير عنها إلا من خلال نظرية الأنساق العامة لصاحبها برتالونفي، مع العلم أن هذه النظرية ولدت في الخمسينات بالولايات المتحدة ثم انتشرت نظريا وتطبيقا بفرنسا في السبعينات فاتحة آفاقا كبرى أمام المختصين من مختلف دول العالم في المجال الإنساني.

وتعد هذه الأخيرة من أكثر النظريات استخداماً في حقل الخدمات الاجتماعية فقد أصبحت "التغذية العكسية "و"نسق العميل" و"نسق المساعدة" على سبيل المثال، من المفاهيم الثابتة والمُسيطرة في حقل الخدمة الاجتماعية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن نظرية الأنساق العامة خدمت كإطار نظري العديد من نماذج الممارسة المستخدمة حالياً. ويمكن توضيح هذه الفكرة حسب ما ذكره دورو(Durand) وفق المخطط التالي[1]:

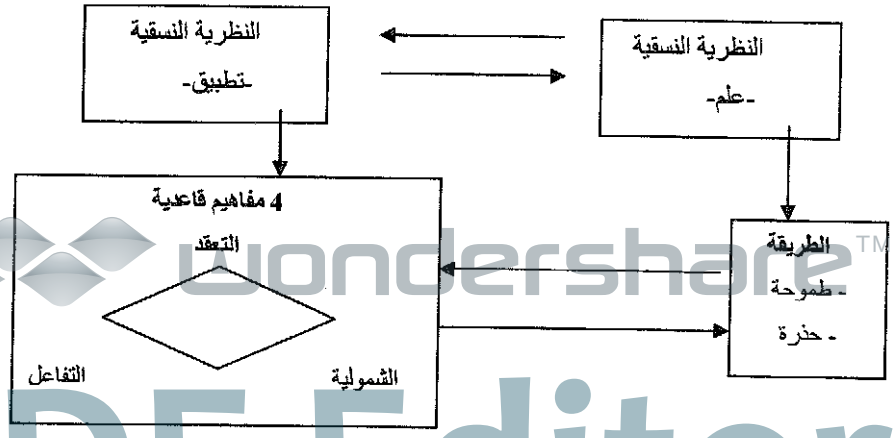

wondershare™
PDF Editor

مخطط (01): يوضح تكامل النظرية النسقية بين النظري والتطبيقي.

وفي الواقع، تعد مداخل العلاج الأسري من النماذج القائمة أساساً على مفاهيم نظرية الأنساق العامة وذلك يعود لكون هذه المداخل تتعامل مع الأسرة التي تعد بدورها أكثر الأنساق الاجتماعية وضوحاً. ولا تقتصر إسهامات النظرية على ذلك، حيث أحدث استخدامها من قبل الأخصائيين الاجتماعيين نقلة من التركيز ضيق الأفق المعمول به سابقاً على "**الشخص-في- الموقف**" إلى تركيز أعم وأشمل ويتمثل في "**الشخص-في- البيئة**"، إذ يمكن توضيح هذه الفكرة من خلال الشكل التالي:

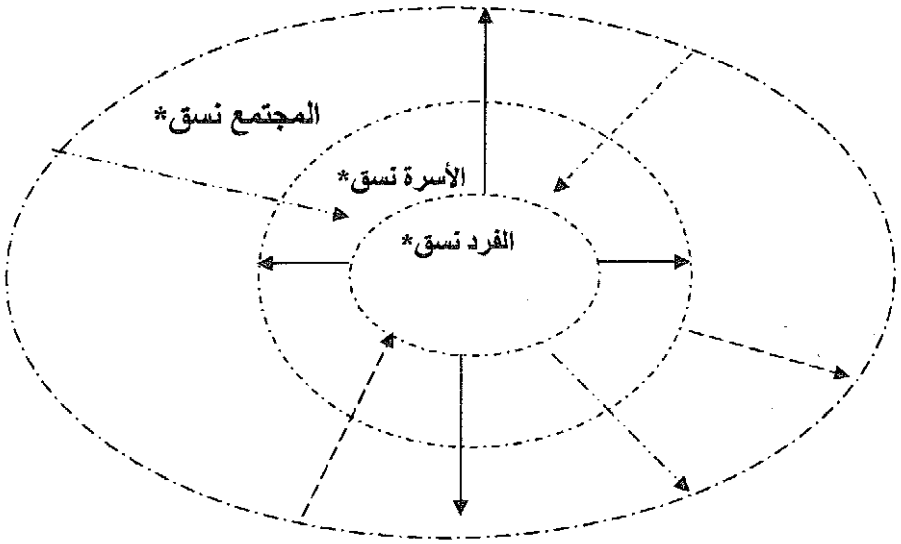

مخطط(02): يُوضّح تمركز الأنساق في المجتمع.

سمحت هذه الوسائل النظرية، فيما بعد، بتفسير وظيفة دافعية المرور إلى الفعل الجانح وذلك من أجل الإبقاء على توازن النسق الأسري، وبالتالي أعطى هذا المنظور اهتماما بالغا لفهم الفعل الإجرامي والجانح بالأخص داخل النسق

Wondershare PDF Editor

الأسري، مساعدا بذلك على الكشف والتمحيص في أفعال قد تبدو غير مفهومة لكنها متكيفة.

وما يهمنا بعد أن نستدل بما قدمه برتالونفي في نظريته أن الفرد عبارة عن نسق حتى وإن تم النظر إليه بمعزل عن الأسرة، وهو أيضا أحد أطراف النسق المتمثل في الأسرة التي تمتد لتشمل المجتمع ثم الأمم على اعتبارها أنساق أكبر، ولا نحتاج إلى الحديث والإشارة إلى أهمية الأسرة البالغة في تشكيل شخصية الفرد، إذ يعتبرها علم النفس أحد مسلماته؛ فالكائن الحي بعد أن يتم تكوينه في الحضانة البيولوجية، فإنه ينتقل إلى الحضانة الاجتماعية وعلى رأسها الأسرة ثم بقية المؤسسات الاجتماعية لتعمل على تحويل إمكانياته واستعداداته السلوكية إلى سلوك فعلي، أي كفرد موجود في المجتمع ومواطن في الدولة.

وعلى هذا الاعتبار، فإن ما يحدث من خلال مؤسسات ووكلات اجتماعية وثقافية متعددة في تكوين الأفراد، نجد أن الأسرة تقف في مقدمة هذه المؤسسات وتحجز لنفسها الإسهام الأكبر في عملية التنشئة الاجتماعية، كما أن فهم الفرد على نحو أفضل لا يتم إلا باعتباره نسقا كاملا في حد ذاته والذي يوجد بدوره داخل أنساق أخرى ممتدة.

وقد أعطت شبكة العلاقات داخل هذه الأنساق فهما أخرا للجنوح والإجرام والتي سيتم التطرق إليهما تباعا في هذا الموضوع، لكن قبل ذلك أوجب أن نعرّج على بعض المفاهيم التي اقترحتها هذه النظرية والتي سيتم اعتمادها وفق ما جاء به برتالونفي (Bertalenfy)[2].

- **مبدأ الوحدة الأساسية:** الذي يعتبر أن الكل الشامل عبارة عن نسق واحد هائل يمكن النظر إليه باعتباره مكونا من عدة أنساق، أي أن كل نسق فرعي هو أيضا نسق في حد ذاته، ويجب أن نضع في اعتبارنا بيئة النسق أو النسق التالي المستوعب للنسق الفرعي.

- **الأنساق المفتوحة والمغلقة:** يعتبر هذان المفهومان على قدر عالي من الأهمية فيما يتعلق بفهمنا لهذه النظرية، ويكمن الفرق هنا في نتائج التحول

Wondershare PDF Editor

بحيث تؤدي التحولات في الغالب إلى إنتاج مادة جديدة، أما إذا أدت فقط إلى إعادة ترتيب أجزاء النسق كما في الآلات الميكانيكية فنكون هنا أمام نسق مغلق وهذا التغير عادة ما يطلق علية اسم التغيير من الدرجة الأولى (التحول في جهة أحادية)، وهذا بخلاف ما يحدث في النسق المفتوح الذي يحافظ على نفسه من خلال عملية مستمرة ودائمة من المدخلات والمخرجات، ويكون الفرق، إذن، في أن النسق المغلق مقطوع الصلة بمن حوله لأنه يسعى فقط إلى الحفاظ على التوازن الداخلي. أما النسق المفتوح –الذي يفترض أن يكون الكائن الحي باعتباره في اتصال دائم مع العالم الخارجي، حيث يسعى دائما لتحقيق معدل مقبول من التكيف والتوافق مع المدخلات– فهو ينزع إلى المقاومة أكثر منه إلى الانهيار لأنه في اتصال دائم مع حدود العالم الخارجي وعلى هذا الأساس، فإننا نعتبر أن الآلة عبارة عن نسق مغلق والأسرة تمثل نسقا مفتوحا.

– **التغذية المرتدة:** هي وسيلة يحفظ من خلالها النسق على معدل مقبول من الاستقرار، وعند خروج النسق عن توازنه لأي ظرف من الظروف فإن التغذية المرتدة تعمل على الفحص ومن ثم التنظيم، وهذا يعني أن النسق يقوم بفعل التصحيح الذاتي. وإن لم يحدث هذا الفعل، فإن ميكانيزمات التغذية المرتدة قد تعطل ويترتب عليه أن النسق يصبح مختلا وغير منتظم وأكثر ميلا إلى الاضطراب كما في حالات الإجرام والانحراف.

– **المحصلة الواحدة:** كما سبق أن أشرنا إلى أن النسق المفتوح يكون أكثر مرونة من النسق المغلق، إذ يؤكد هذا المبدأ هذه الفكرة على اعتبار الطريقة التي يتعامل بها كل نسق مع المدخلات والمخرجات تكون مختلفة تماما فالمدخلات في النسق المغلق تتبع طريقا واحدا محددا سلفا، بينما فقد يستعمل النسق المفتوح عدة طرق حتى وإن أغلقت هذه المداخل فإنه يوجد دائما البديل ومنه يمكن الوصول إلى نفس الهدف بطرق بديلة ومكونات أخرى متاحة ويشير مبدأ المحصلة الواحدة إلى أن عدة عمليات بإمكانها أن تؤدي إلى نتيجة واحدة كعقل الإنسان مثلا، وعلى العكس نجد نظام التلفون الذي يعد نسقا مغلقا ذو

Wondershare PDF Editor

محصلة منخفضة ومحدودة، وهو ما أكده برتالونفي، فالأسرة باعتبارها أحد أهم الأنساق تملك قدرا مُهما من هذه الخاصية، وتختلف طبعا في درجتها وشدتها حتى أن الأسر غير المرنة تكون هذه الخاصية لديها محدودة ومقيدة.

2. تحديد المفاهيم:

من الضروري بعد أن عملنا على تحديد أهم مبادئ نظرية الأنساق أن نتفحص أهم المفاهيم التي سيرد ذكرها، وهي كالتالي:

1.2. النسق: لقد ظهرت العديد من المحاولات لتعريف النسق وهي محاولات تفاوتت في دقتها ووضوحها ولعل أفضل هذه التعاريف هو ذلك الذي قدمه هارتمان ولاريد (Hartman &Larid)، حيث اعتبرا النسق "ذلك الكل والذي يتكون من أجزاء متداخلة فيما بينها ومعتمدة على بعضها البعض"[3].

أو بتعبير بواسو(Poisson) يعد "النسق مجموعة من العناصر المتفاعلة الديناميكية والمنظمة وفق هدف متطور في الزمن".[4]

فالأكيد أن النسق لا يمكنه أن يشتغل إلا في حدود التنظيم المهيكل عليه والذي يهدف إلى غايات التوازن والانسجام بين مكوناته.

كما أنه من المهم أن نؤكد أن المجتمع هو النسق الممتد للأسرة ورغم أن البحث يكتفي فقط بدراسة النسق الأسري إلا أنه من المفيد أن نلقي نظرة على مفهوم المجتمع على اعتبار السلوك الإجرامي والجانح لا يتم بمعزل عنه، وقد عرّف أنتوني غدنز المجتمع " أنه نسق من العلاقات المتداخلة التي يرتبط بها الأفراد بعضهم ببعض وبهذا المعنى ينظر إلى مجتمعات الدول التي تضم عشرات الملايين من الناس مثل فرنسا والولايات المتحدة مثلما ينظر إلى الجماعات الصغيرة التي قد لا يتجاوز عدد أفرادها العشرات أو المئات، وتتميز جميع المجتمعات بصفة عامة بصفات مشتركة منها أن ثمة بنية من العلاقات الاجتماعية، تنظم أعضائها وفقا لتوجهات ثقافية فريدة ومتميزة".[5]

Wondershare
PDF Editor

2.2. الجريمة: يرى محمد صبحي نجم" أن الجريمة كظاهرة اجتماعية تعارض قيم وأخلاق المجتمع وهي كفعل أو امتناع يصدر عن إرادة مُدركة تخرق أمن ومصالح وحقوق الأفراد والمجتمع ويعاقب مرتكبها بعقوبة أو تدبير احترازي وتكون الجريمة قانونية إذا وقعت بالمخالفة لقواعد القانون".[6]

وقد فسّر جمال معتوق السلوك الإجرامي على أساس أنه سلوك معادي للمجتمع وهو لاشك كأي نوع أخر من أنواع السلوك الشاذ وغير السّوي، وأن الشخص المجرم لا يختلف عن المريض الذي يأتي أيضا بالسلوك الشاذ.[7]

إن حديثنا عن الجريمة لا يخلو من الحديث عن الانحراف هذا لأنه من أهم فروع علم النفس من جهة، وأن أغلب النظريات جاءت لتفسّر الانحراف أكثر من تفسيرها جرائم الكبار البالغين من جهة أخرى، وبالتالي فإنه من المفيد التطرق للانحراف من خلال تعريف مختصر.

3.2. الانحراف: أوضح عايد عواد كويرات أن انحراف الأحداث من التخصصات الواسعة ضمن علم الاجتماع؛ فهو يشمل الكثير من السلوكات التي لو ارتكبها الكبار لاعتبرت جرائم.[8]

وحسب علي مانع فالحدث مصطلح متوقف كثيرا على سن المسؤولية فقانونيا يعتبر حدثا من كان تحت سن الثامنة عشر، وهو السن الذي يسأل فيه الطفل جزئيا عن أعماله[9].

كما يضيف الباحثيين لو ووسوزيني (Loo&Susini) أنه يوجد إبهام وغموض بين مفهومي الانحراف والجنوح، فالجنوح هو مصطلح يضم كل السلوكات التي تخترق العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية والأخلاقية التي يُسّطرها المجتمع وهو يختلف من ثقافة إلى أخرى[10].

ومن ثمة، اعتبر سيلوس (Selosse) الجانح هو ذلك الفرد الذي تصدر منه سلوكات عدوانية ضد الآخرين وخرق للعادات والتقاليد والقيم المسطرة من

wondershare™
PDF Editor

طرف الجماعة التي يعيش فيها، ويكون ذلك فرديا أو جماعيا، مما يدفع أفراد المجتمع إلى القيام بسلوك مقابل كالعقاب أو العزل [11].

3. السياق التحليلي:

كما سبق وأشرنا إليه، فان النسق الأسري على قدر من الأهمية؛ فهو يحتل الصدارة في تكوين وتنشئة الفرد، وأنه عندما يفقد النسق الأسري قواعده وثوابته وعندما لا يتلقى تغذية رجعية مناسبة، ويحول بالتالي من تقبل المعلومات الجديدة ويفضل أيضا البقاء مغلقا، فانه يفقد اتزانه ويصبح بذلك أرضية صالحة لنمو التفاعلات غير السّوية؛ وهو بهذا يهيئ المناخ لشتى صور الانحراف، ولكن يجب أن نوضّح بشيء من التفصيل إمكانيات هذه الأسرة لكي ننتقل إلى كيفية ظهور بوادر الاختلال عبر سيرورة الاتصالات الخاطئة داخل هذا النسق الواحد.

1.3. الأسرة كشبكة علاقات إنسانية اجتماعية وكجماعة أولية: تعتبر الأسرة شبكة علاقات إنسانية وجماعة أولية مسؤولة بشكل مهم ومباشر في تلقين الفرد الحاجات والمقتضيات الاجتماعية، حيث يرى أكرم نشأت أن الأسرة وسيلة أساسية ومثلى لإيجاد الثقافة الاجتماعية وتنميتها وذلك بالتربية السليمة المتمثلة في معاملة الطفل بالحزم المقترن بالعطف، وتعمل هذه التربية على تحريره من الخضوع لسيطرة قانون اللذة والألم وتخضعه لقانون الخير والشر، أما التربية الخاطئة التي تعتبر من العوامل المهيئة للسلوك الإجرامي فإنها تشمل جميع الحالات التي تكون فيها معاملة الطفل مقترنة بالقسوة واللين أو كلاهما.[12].

ويُوضّح أكرم نشأت –نقلا عن دونالد تافت (Donald Taft)– أن انحطاط المستوى السلوكي للأسرة له صلة وثيقة بالإجرام، فالطفل الذي يجد نفسه في عائلة انغمس أفرادها في الإجرام أو مارسوا رذائل أخرى ينزلق غالبا مع ذويه في خطاياهم، وقد يتورط في ارتكاب الجرائم مقتديا بأهله. وتأكيدا لما سبق خلصت دراسة ميدانية أجريت في مصر إلى أن 67.4 % من عائلات الجانحين

wondershare PDF Editor

كانت متصدعة، في حين بلغت نسبة العائلات المتصدعة لغير الجانحين 33 %.[13].

2.3. بناء وتغيير هياكل ووظائف الأسرة: تعرضت الأسرة مؤخرا لبعض التطورات التي غيّرت حجمها وهياكلها ووظائفها، إذ لم تعد الأسرة تلك الأسرة الممتدة التي تشمل العمات والأعمام والجد مع بعض الأقارب، مع العلم أن وجود أطراف راشدين غير الوالدين له تأثير على عملية الاتصال والعلاقات داخل الأسرة الواحدة.

وفي هذا السياق، أشارت دراسة ناصر جابي بالجزائر إلى أن تفكك الروابط الأسرية وانكسارها خاصة بعد الاستعمار جر إختلالات على عدة مستويات أدى إلى انتشار العنف داخل الأسرة الجزائرية؛ بل وتعدى ذلك أن الطفل أصبح ينتج بدوره عنفا.[14].

وتوصل التقرير المستمد من مركز الاقتصاد التطبيقي للتنمية– نقلا من نفس الباحث– إلى تدعيم نتائج هذه الدراسة، حيث سجل 15% من الأمهات يعتقدن أن الأطفال يجب معاقبتهم، ونسبة 81 % من الأطفال تعرضوا فعلا إلى عقوبات جسمية غير حادة، كما أن نسبة 22.5 % من الأطفال تعرضوا فعلا إلى عقوبات نفسية (التهديد والسب وسوء المعاملة)، وخلص نفس التقرير إلى أن الأم الأقل حظا من التعليم كانت الأكثر لجوءا إلى معاقبة أبنائها مقارنة مع الأم المتعلمة.[15].

ومن تأثير التغير الاجتماعي نجده قد مسّ الاتجاهات الوالدية من حيث تقدير عدد الأطفال وأماكن الإقامة وخروج المرأة إلى العمل فما كان سابقا ضروريا أصبح الآن أقل أهمية.

وعليه، فإننا نفتّد الادعاء القوي الذي يرى أنه عندما يصبح المجتمع وتقسيمه للعمل أكثر تعقيدا والعلاقات الشخصية أقل عاطفية، فان الضبط الاجتماعي غير الرسمي يضعف وبالتالي يزداد السلوك الانحرافي في المجتمع، "فدوركايم" اعتبر

wondershare™
PDF Editor

أن بعض أشكال الجريمة هي نتيجة للتغير الاجتماعي السريع وما يصحبه من انهيار الوسائل التقليدية للضبط الاجتماعي، وقد أكد كغيره (مثل غبريال تارد) أن الجريمة هي الثمن الذي ندفعه من أجل نهضتنا واكتشافاتنا حسب ما أوضحه علي مانع.[16].

وقد ترتب على هذا التطور حسب ما أوضحه علاء الدين كفافي خلق مؤسسات تقوم ببعض الأعباء التربوية الأسرية مثل دور الحضانة، بالإضافة إلى الميل نحو إنجاب عدد قليل من الأبناء على اعتقاد أن ذلك يمكنهم من توفير فرص أفضل في تربية وتعليم أطفالها، ومن ثمة يفهم بأن الأسرة –في ظل التغيرات الاجتماعية– تقلص دورها ووظائفها وأصبح لها شركاء جدد يقاسمونها عملية التنشئة.[17].

بعد أن تعرضنا، إذن، إلى أهم المبادئ التي قدمتها نظرية الأنساق وتناولنا للأسرة باعتبارها أول شبكة علاقات إنسانية يتفتح عليها الفرد تبعا لإمكانياتها أصبح من الضروري التساؤل عن كيفية تطبيق مبادئ هذه النظرية في النسق الأسري أو بعبارة أخرى: كيف استفاد النسق الأسري من مبادئ هذه الأخيرة ؟.

نستهل إجابتنا بالقول أنه غالبا ما تسير العلاقات داخل الأسرة وفق أنماط وقوانين أو قواعد معينة وثابتة، لذا فإننا نستطيع تطبيق مبادئ نظرية الأنساق على المبادئ العامة للأسرة رغم أنها تحدث عل نحو أكثر تعقيدا.إلا أنه يمكن فهم هذه السيرورات بناءا على الوظائف التي تقوم عليها الأسر، وذلك على النحو التالي:

3.3. التغذية المرتدة داخل النسق الأسري: أشار علاء الدين كفافي إلى أن التغذية المرتدة هي إعادة إدخال نتائج الأداء السابق إلى مدخلات النسق من جديد كوسيلة لمراقبة الأداء وتحسينه؛ بمعنى أن النتائج التي تعتبر مخرجات النسق يعاد إدخالها أو إدخال بعضها مرة أخرى كمدخلات للاستفادة منها في تصحيح وتحسين الأداء ويتم ذلك بطريقة دائرية[18].

wondershare
PDF Editor

ويشير دورو(Durand) إلى هذه الفكرة حسب ما قدمه في المخطط التالي.[19].

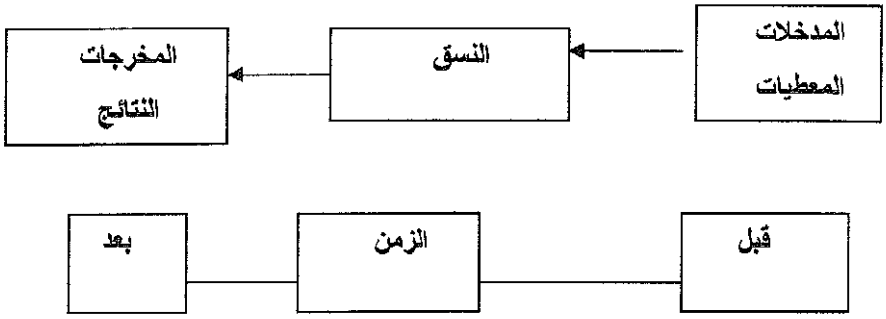

مخطط رقم (03): يوضح سيرورة المدخلات والمخرجات داخل النسق.

لا يكون الاستقرار داخل النسق الأسري إلا من خلال عمليات التغذية الرجعية، فالميل للانحراف أو التغيير- حسب ما أشار إليه علاء الدين كفافي- قد يكون قويا جدا أو مفاجئا بما يفوق قدرة النسق على الاحتمال والاستيعاب، إذ يمكن أن يُواجَه من طرف النسق باستجابات من الانحراف المضاد، وفي الأسرة المضطربة قد تواجه الحاجة حتى لأكثر التغيرات ضرورة بتشديد متزايد مع محاولة من طرف الأسرة للإبقاء على القواعد المألوفة، وقد تنشأ الأعراض لدى أحد أعضاء الأسرة عندما يكون نظام الأسرة متسّما بالجمود وعدم المرونة بالدرجة التي لا تسمح بالتغيير لاستيعاب احتياجات أفراده المتطورة والمتغيرة.

لذلك، فإن نظام التغذية الرجعية حسب هو الآلية التنظيمية التي يتمكن النظام من خلالها من الحفاظ على الاتزان، في نفس الوقت الذي يقوم فيه بمراقبة محاولاته لتحقيق بعضا من أهدافه.

4.3. الانفتاح والانغلاق داخل النسق الأسري: كنا قد أشرنا سابقا إلى أن النسق المفتوح هو نسق يحافظ على نفسه من خلال عملية مستمرة من المدخلات والمخرجات؛ وهو في حالة تبادل دائم مع البيئة الخارجية، في حين أن النسق المغلق هو نسق مقطوع الصلة بما حوله. وفي هذا السياق اعتبر برتالونفي أن

Wondershare
PDF Editor

النسق الأسري عادة ما يكون نسقا مفتوحا بعكس الآلات مثلا فإنها أنساق مغلقة.[20].

وتوجد أسر أقرب إلى الانغلاق منها إلى الانفتاح، من حيث أنها تتسم بالتشدد والانعزال وأوضح في هذا الصدد أن الأسر التي تكون قدرتها على التكيف والتغيير أقل مقارنة بغيرها تكون غير قادرة على الاستفادة من التجارب الجديدة، وأقل قدرة على رفض أو تغيير الأنماط التفاعلية التي ثبت أنها غير صالحة، كما أن الأسر المغلقة حسب اليس هي الأسر التي تعزل نفسها ماديا ونفسيا عن المجتمع الذي تعيش فيه، وقد يميل أعضاء هذه الأسر إلى عزل أنفسهم والانسحاب من مطالب المجتمع التي يخشون من عدم الوفاء بها، فمثل هذه الأسر يكون لها قواعد إجبارية قوية تجعل أفرادها مختلفين عن أفراد الأسر الأخرى، ويبنون حدودا جامدة تحول دون تدفق المعلومات، فهم بذلك يمثلون أفضل تمثيل لما أسماه ألبرت اليس بالدائرة المغلقة (Closed circuit).

وأشار نفس الباحث إلى أن الأسرة المغلقة -بالإضافة إلى عزلة أفرادها- فهم ينغمسون انغماسا زائدا في علاقاتهم؛ فإذا كانت الحدود الخارجية للنسق الأسري المغلق صلبة وغير قابلة للبقاء فان الحدود الداخلية بين الأنساق الفرعية داخل الأسرة تكون ضعيفة ومميّعة ويترتب على ذلك أن أعضاء الأسرة بدلا من أن تكون لهم اتصالات خارج الأسرة تنحصر فقط داخلها ويزداد اندماجهم وانغماسهم داخل هموم ومشاغل الأسرة، ولذا تتميز علاقتهم بالإفراط في التواجد مع بعض وبالتالي تقلص الخصوصية الشخصية وهي من العمليات الأسرية الممهدة لاضطراب بعض أفراد الأسرة. وبعد خاصيتي العزلة والاندماج تأتي الخاصية الثالثة وهي **الجمود وعدم المرونة**(Rigidity-inflexibilty) وتظهر هذه الخاصية في علاقة أفراد الأسرة ببعضهم البعض، وقد تؤدي العلاقات بين الأم ووليدها على نفس المستوى طيلة المراحل العمرية، ولا تسمح الأم في هذه الحالة بانفصال الشخص عنها، وكثيرا ما تكون هذه العلاقة وراء حالات إصابة الأبناء بالفصام عندما تُهدد هذه العلاقة أو تنقطع[21].

Wondershare™
PDF Editor

أما النسق الأسري المفتوح فهو نسق قادر على التغيير محافظا على الحدود التي تبقيه نسقا مميزا، وفي هذا الشأن يرى علاء الدين كفافي أن ما يُميز الأسر ذات النسق المفتوح هو الاتصال الخارجي؛ وهو الأمر الذي يحافظ على التماسك الجماعي في الوقت الذي يحافظ فيه على الحرية الفردية وثاني الخصائص التي تميز النسق المفتوح في الأسر هي **المرونة** والتي تتمثل في سهولة الاتصال بالخارج والتفاعل معه. ونظرا لأنه مسموح لكل فرد في الأسرة بقدر أكبر من تعدد الأدوار واختلاف جوانبها، فانه يكون لدى الأسرة عدد أكبر من بدائل المسالك والقنوات وأساليب السلوك لكي تحل محل تلك التي تفقد قيمتها أو يتجاوزها تيار الزمن والتطور وحتى تلك الأحداث الكارثية أو العنيفة والقاسية مثل وفاة أحد أعضاء الأسرة أو الانفصال طويل المدى له لا يسبب انهيار التكوين والبناء المرن للأسرة المنفتحة. ومع وجود هذا القدر من المرونة، فانه يمكن توقع أن يُكوّن أفراد الأسر المفتوحة قدرا أكبر من الحيوية والقابلية للنمو من الأسر قليلة المرونة والأقرب إلى الانغلاق.[22].

من خلال ما سبق يمكن أن نصل إلى فكرة مُهمة هي أن الفعل الجانح يمكن تفسيره ضمن نطاق النسق الأسري من خلال التركيز على التفاعلات التي تتم بين أفراد الأسرة ضمن خلفيتيين، وهما:

4. خلفية أن الجنوح انحراف عن القواعد الاجتماعية:

وهي الفكرة التي تؤكد تخلي الأسرة عن دورها نتيجة لظروف اقتصادية اجتماعية وعاطفية، وأشار ناصر ميزاب إلى أن هذا المنطق مَثّله كل من الزوج لاوبير، وفريشات، وفرانقتون (Loeber et Loeber1986, Frechtte et Leblanc 1987, Frerington1986) من خلال اقتراحهم لمجموعة من التصنيفات نذكرها على النحو التالي[23]:

wondershare™
PDF Editor

1.4. تصنيف الزوج لاوبيير (Loeber): سنتعرض لها بدءا من الزوج لاوبيير من خلال تقديمهما لنماذج للمعاملات الأسرية لفهم المشاكل المقترنة بالفعل الجانح مثل:

- **النموذج المبني على عدم الاهتمام الوالدي:** يشير هذا النموذج إلى انسحاب الوالدين من الإشراف والمتابعة؛ الشيء الذي يجعل الطفل يعتمد على تجربته البسيطة للتكيف والتي يحتمل أن تكون غير صائبة دائما. وأوضح لاوبير (Loeber) أن الأسرة في هذه الحالة تتجاوز السلوكات التي يقوم بها الأطفال كالسرقة مثلا ولا يُعيرون الانتباه إلى مطالبهم التي تجعل الأطفال يلجأون إلى حل مشكلاتهم بأنفسهم وحسب ما تمليه عليهم تجربتهم الساذجة[24].
- **النموذج المبني على الصراع الأسري:** هو النموذج الذي يعيش فيه أفراد الأسرة صراعا دائما، وهذه ميزة الأسر التي لا تعرف كيف تضبط الحدود داخل مجالها، حيث أكد ناصر ميزاب أن الأسر التي لا تتعامل مع المشكل حين طرحه يؤدي إلى عدم استقرار ظهورها وظهور أفكار سيئة لدى أفراد الأسرة فيما بينهم.[25].
- **نموذج الأسرة المضطربة:** يؤدي تعرض الأسرة لأحداث عويصة إلى تفككها خاصة ما تعلق بعلاقة الزوجين؛ مما ينتج عنه إضرار بالعلاقة التي تجمع الأبوين بالأولاد ومن ثم إنقاص ثقة التواصل والتبادل وتقليل فعالية الإشراف الوالدي مما يجعل ممارستها متشددة أو متميعة.

وقد قدم لاوبير الطرق التي يتم بها الاضطراب الأسري انطلاقا من ظهور بوادر الاضطراب عند الوالدين أنفسهما (أكبر مؤشر للجنوح) ووصولا إلى ضياع أحد الوالدين إما بالانفصال أو الموت وكذا الحالة النفسية والجسمية والتي تقرر هي أيضا سلوك الأبناء[26].

wondershare PDF Editor

هذه أهم النماذج التي قدمها الزوج لاوبير من خلال التناول النسقي إلا أنهما لم يحددا بالضبط ما هو النموذج الأسري الذي يمكن أن يتماشى أكثر مع نوعية وطبيعة الجنوح.

2.4. تصنيف لوبلان (Leblanc) لأسر الجانحين: يذكر ناصر ميزاب أن لوبلان كان قد قدم تصنيفا لأسر الجانحين من خلال استبيان مقدم إلى عينة مكونة من 4400 جانح؛ الأمر الذي نتج عنه إيجاد خمسة نماذج أسرية تتقارب مع نماذج الزوج لاوبير التي أشرنا إليها سابقا، حيث تمتاز هذه الأسر بترتيب تنازلي يبدأ من الأسر ذات الغياب الشكلي والفعلي للأبوين والتي أعطى لها اسم الأسر الخرقاء، ثم الأسر التي تتبنى العقاب القوي مقارنة بالإشراف الغائب والتي أسماها بالأسر العقابية مرورا إلى الأسر الصراعية التي يظل الانفصال النفسي فيها قائما حتى بوجود الاتصال الجسدي، ويليها الأسر المنحرفة التي تتميز بالفقر المدقع والانحراف وغياب الأم وأخيرا الأسر الملائمة والتي تحتوي على قدر من التواصل وثبات نوعي اقتصادي واجتماعي[27].

وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات إلا أنها لم تقدم تفسيرا لنوع الجنوح الذي يقابل كل نموذج، إضافة إلى سبب سلوك أحد الأطفال دون غيره سلوكا مختلفا رغم تماثل الظروف المثيرة للانحراف.

5. خلفية أن الجنوح اضطراب مرضي يمس السلوك:

اعتبرت هذه الخلفية الجنوح اضطرابا يمس سلوك الجانح وهو بالتالي انعكاس لاضطرابات مَرضية تتواجد داخل الأسرة نفسها، ومن أبرز النماذج المقدمة في هذا الصدد، نجد:

1.5. نموذج التعمية: أشار علاء الدين كفافي إلى أن كارل ماركس أول من استخدم هذا المصطلح، حيث أوضح من خلاله أهمية الأوضاع الاجتماعية السّيئة والمتمثلة في الفوارق الكبيرة بين الطبقات واستغلال الطبقات العليا للطبقة الدنيا، ليأتي لينغ (Laing) ويستعمل هذا المصطلح ليشير إلى الصور المَرضية

Wondershare™
PDF Editor

للأسرة كالمراوغة والإنكار ولبس القناع؛ وهي وسائل يعتمدها الآباء من أجل تجنب الصراع الأصلي والحقيقي، وتلجأ الأنساق المغلقة إلى مثل هذه الميكانيزمات ضمن الوسائل التي تحافظ من خلالها على كيانها وتوازنها وبقائها على الرغم من قدر اللاسواء الذي تتسم به علاقات الأفراد، ويتم استخدام التعمية عندما يبدأ أحد الأعضاء في تهديد الوضع القائم عن طريق إحداث تغيير ما ويؤدي ميكانيزم التعمية دوره في الحفاظ على الأدوار الجامدة في الأسرة.

2.5. نموذج المثلث غير السوي: يتكون هذا المثلث حسب بوين (Bowen) من أحد الوالدين مع الطفل ضد الطرف الأخر، وتتميز هنا العلاقة التنافسية بين الزوجين بالبرودة بل تكون أقرب إلى العلاقة التنافسية، ويعد المثلث صورة من التفاعلات الخاطئة التي تتمثل في تحالفات تتكون على النحو الأتي:

- الأطراف التي يضمها المثلث ليسوا كلهم أقران أو من جيل واحد، بل يكون واحد منهم فقط من جيل مختلف عن جيل الطرفين الآخرين.
- في عملية التفاعل يتحالف أحد الثنائي المنتمين إلى جيل واحد مع الطرف الثالث المنتمي إلى الجيل الثاني ضد رفيقه من نفس الجيل.
- إن التحالف بين الشخصين ضد الثالث يقابل بالإنكار؛ بمعنى أن السلوك المعين الدال على التحالف ينكر من جانب الثنائي المتحالف نفسه إذا ما أثار شكوك الآخرين.

ويشرح بوين (Bowen) –وهو أحد أعلام العلاج الأسري– حدوث المثلث ضمن نظريته في ديناميات الأسرة المُولدة للمرض؛ فعندما تصبح أحد العلاقات الزوجية غير مستقرة، وعندما يشتد بينهما الخلاف والجدال ولا يستطيعان تسويته فإنهما يتجهان إلى الطرف الثالث وهو الابن أو أحد الأبناء، وفي هذه الحالة يصبح هذا الطرف عرضة لاستنزاف كل مصادره العاطفية لأجل إرضاء كل الأطراف.

3.5. نموذج كبش الفداء: هذا النموذج يُعبّر عن استغلال الطفل لصالح توترات الوالدين، لتوفير حل المشكلات الوالدية المستعصية، فعندما يصبح التوتر شديدا

Wondershare
PDF Editor

بين الوالدين ينبغي أن يحدث تفريغا لهذه المشاعر والانفعالات، ولما كان الوالدان لا يستطيعان التعبير عن مشاعرهما-كل منهما نحو الأخر- لأن هذا من شأنه أن يزيد التوتر بينهما ويلهب الصراع إلى الحد الذي قد لا يتحملانه، وان وجود طفل يقدم الحل الذي يتمثل في توفر الهدف، الذي تتجه إليه الانتقادات والمشاعر السلبية لكل والد نحو الآخر بعد أن يحولها ويزيحها إلى هذا الهدف النبيل.

أما بخصوص الديناميات وراء لعب هذا الدور، فإن الطفل يتدرب على أن يكون حساسا للتوترات الناشئة في النسق الأسري، وعليه أن يجذب الانتباه إليه بسلوك معين يجعل الجميع يحول انتباههم إليه، وقد يؤنبونه أو يعاقبونه، وبهذا ينخفض التوتر الأصلي في النسق ويعود إلى حالة الاتزان، ذلك أن الطفل الذي يقبل بهذا الدور يستدخل توقعات والديه ويستمر في الاستجابة إلى الحاجات الوالدية بشكل شعوري أو بشكل لا شعوري. ومن هنا، فإن الطفل الممزق سوف يبقى مضطربا للسبب نفسه، مادام سلوكه يجد التدعيم، والطفل المضطرب سوف يبقى مضطربا للسبب نفسه، مادام دوره أساسيا في الحفاظ على التوازن وفي استعادته إذا اهتز[28].

بالإضافة إلى النماذج التي سبقت، فقد أشارت فتيحة كركوش إلى أن الكثير من الباحثين تبنوا هذه النظرية في تفسيرهم للانحراف والجريمة على غرار ماغاها(Magaha,1995) وغاغفزي وبلومنكرانتز(Gavazzi et Blumenkrantz) ومركيين(Mirkin) وستيرلين (Steirlin,1973)، حيث أشاروا في مجمل بحوثهم إلى أن السلوك الجانح والإجرامي ما هو إلا تعبير عن خلل مس النسق الأسري على مستوى التفاعلات العائلية والتي يخضع لها الأبناء وتؤثر سلبا على معاشهم وتوازنهم النفسي والاجتماعي[29].

من خلال المعطيات المقدمة، نلاحظ أن التناول النسقي للأسرة أعطى اهتماما كبيرا لصيغة التواصل داخل الأسرة، والذي جعل منه سببا مباشرا لحدوث الاضطرابات داخل هذا الكيان مؤديا بدوره إلى ظهور السلوكات المنحرفة،

wondershare™ PDF Editor

بالإضافة إلى أن هذا التفسير سحب صفة البطولة من المجرم والمنحرف ليعيد توزيعها على باقي أفراد الأسرة بصفتهم يتفاعلون ويولدون فيما بينهم علاقات تتحدد بفضل القواعد والبنى التي تسيّر الأسرة وتحكمها، وهذا بعكس ما جاءت به باقي النظريات المفسرة للجنوح والتي أولت هذا الأخير بمعزل عن هذه التفاعلات التي تستجيب بدورها لتفاعلات الوسط الاجتماعي الذي تخضع له الأسرة بصفتها نسقا مفتوحا.

ومن ثمة، فانه عندما لا يُكوّن النسق قواعد ثابتة وواضحة ومرنة وله قدر من المعقولية بحيث يقتنع بها أفراد النسق، وعندما لا يتلقى النسق تغذية مرتدة مناسبة، ويحول دون تقبل المعلومات الجديدة ولا يتبادلها مع الخارج، وحينما يقاوم النسق التغيير ويُفضّل أن يبقى على حاله فإنه يكون نسقا مغلقا على نفسه ويفقد اتزانه، ويصبح بذلك مُمهدا لميلاد التفاعلات غير السّوية وتبدأ العلاقات في النمو والتشّكل على نحو منحرف، ويتهيأ بذلك المناخ لشتى صور الانحراف والجنوح المختلفة، وعلى الرغم من إسهام هذا التناول ونقله لتفسير الانحراف والجريمة من النطاق الضّيق إلى النطاق الأعم المتمثل في الفرد–أسرة الفرد–مجتمع، إلا أنه أغفل تفسير الظاهرة من وجهة نظر الجانح نفسه (إدراك الجانح) لما يدور في البيئة التي يعيش فيها، انطلاقا من إدراكه الشخصي لكل العلاقات والتفاعلات والمشكلات التي عاشها بالأخص في الأسرة كبيئة قاعدية بالغة الأهمية.

لذلك فإنه يمكننا أن نتساءل لماذا هذا الطفل دون الأخر يقوم بالسلوك الانحرافي؟ وهل يدوم هذا الاضطراب لمدة طويلة؟ وهل كل هذه النماذج الأسرية ينتج عنها بالضرورة جنوح الصغار؟ وما علاقة هذا النوع بالتحديد من الإجرام بهذا النوع من الاضطراب؟ فكل هذه الأسئلة تحتاج إلى بعض التوضيح ضمن نظرية الأنساق.

Wondershare
PDF Editor

قائمة المراجع:

1- Durand Daniel, **La systémique,** Que sais-je, PUF, 1979, P45.

2- Bertalanfy (L), **Théorie générale des systèmes**, Dunod, Paris, 1999, P18.

3- Hartman (A). & Larid (J), **Family-Centered Social Work Practice** New York: The Free Press, 1983, P156.

4- Poisson (M), **Introduction a l'analyse systémique**, Urbain atelier AF, 2005, P254.

5- انتوني غدنز ،**علم الاجتماع**، ترجمة: فايز الصياغ، ط4، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2005، ص79.

6- محمد صبحي نجم، **أصول علم الإجرام وعلم العقاب(دراسة تحليلية وصفية موجزة)**، دار الثقافة، عمان، 2006، ص17.

7- جمال معتوق، **أصول علم الاجتماع الجنائي**، دار مرابط، الجزائر، 2008 ص123.

8- عايد عواد الوريكات، **نظريات علم الجريمة**، دار الشروق، الأردن، 2004 ص 79.

9- علي مانع، **جنوح الأحداث والتغير الاجتماعي في الجزائر المعاصرة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002، ص 36.

10- Loo (H) & Susini (JR), La toxicomanie, Comportment, Revue de **praticien,** T XXV, N°.43, 1976, P76.

11- Selosse (J), **definition de la delinquance et de la deviance, les grands problèmes de la juvenile**, Copenhagen, 1974, P74.

12- أكرم نشأت، **علم النفس الجنائي**، دار الثقافة، عمان، 2005، ص66.

13- نفس المرجع، ص 75.

14- ناصر جابي، **أوضاع الأطفال والمؤسسات المعنية برعايتهم في الجزائر العاصمة**، المعهد العربي للإنماء، الرياض، 2008، ص35.

15- مركز الاقتصاد التطبيقي، الجزائر، 2008،علي مانع، مرجع سبق ذكره، ص 25.

Wondershare™ PDF Editor

16- علاء الدين كفافي، **الإرشاد والعلاج النفسي من المنظور النفسي الأسري** دار الفكر العربي، مصر، 1999، ص36.

17- نفس المرجع، ص45.

18- Durand Daniel.1979, déjà cité, P69.

19- علاء الدين كفافي، مرجع سبق ذكره، ص 84.

20- Elles (G), **The closed circuit, the study of a delinquent family** (ED)the psycho-social interior of family, Chicago,1967, P215.

21- علاء الدين كفافي، مرجع سبق ذكره، ص89.

22- ناصر ميزاب، **مدخل إلى سيكولوجية الجنوح (محددات، تناولات نظرية إستراتيجيات وقاية وعلاج)**، ط1، عالم الكتب، 2005، ص77.

23- Loeber(R), Stouthamer loeber (M), **Family factors as conduits and predictors of juvenile conduit problems and delequency**, In tour M, Morris N ; eds craie and justice, an annuel review of resaerch, vo17, 1986 , P42.

24- ناصرميزاب، مرجع سبق ذكره، ص84.

25- Loeber(R), Stouthamer loeber (M), déjà cité, P79.

26- ناصر ميزاب، مرجع سبق ذكره، ص89.

27- علاء الدين كفافي، مرجع سبق ذكره، ص 95.

28- فتيحة كركوش، المحددات النفسية والاجتماعية لظاهرة الهروب من البيت العائلي-دراسة للأحداث الهاربات المتواجدات بمراكز إعادة التربية- **رسالة دكتوراه غير منشورة**، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، معهد علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، 2008، ص75.

wondershare™

PDF Editor